

البعثة العمرية وأثرها في توطين الإسلام والعربية ببلاد الغرب الإسلامي

د. محمد مرغيت

قسم العلوم الإنسانية

جامعة أدرار



تتناول هذه المداخلة جانبا مهما من تاريخ بلاد الغرب الإسلامي، وهي فترة القادة الفاتحين ومن صحبهم من العلماء المسلمين، الذين وضعوا الأسس الأولى للمجتمع الإسلامي بالقيروان أول منارة للإسلام بشمال أفريقيا. وأهم شيء هنا هو الأثر الثقافي الذي تركته القيروان من خلال جهود قادة الفتح الأوائل وأعمالهم الجليلة التي قدموها من أجل نشر الإسلام ولغة القرآن. وأهم إنجاز أدى إلى ترسيخ عقيدة الإسلام في نفوس المغاربة، ودفعها إلى التشبث به، وازدهار الحياة العلمية، هو بعثة عمر بن عبد العزيز المكونة من عشرة من العلماء التابعين، حيث أرسلهم وأمرهم أن يبذلوا جهدهم لتفقيه المغاربة في علوم الدين حتى يُبنى إسلامهم على أساس متين، وكان من نتائج هذه الحملة أن انتقل أهل المغرب إلى الإسلام وتعلموا العربية. فكانت هذه الحملة العمرية فتحا ثقافيا بامتياز.

La Mission d'Omar Abdelaziz et son impact sur la réinstallation de l'islam et de l'arabe en Occident islamique

Résumé

Cette intervention traite un aspect important de l'histoire de l'Occident islamique, l'ère des conquérants et savants musulmans qui les ont accompagnés et qui ont installé les premières bases de la communauté islamique à Kairouan, cette dernière, est considérée comme le premier minaret de l'Islam en Afrique du Nord. Le point le plus

important, dans ce contexte, est l'impact culturel qu'a laissé Kairouan à travers les efforts des chefs de conquête et leurs vénérables travaux, afin de diffuser l'islam et la langue du Coran.

La conquête d'Omar ibn Abdelaziz, composée de dix savants de ses adeptes qu'il a envoyés et ordonnés de fournir leurs efforts pour les cultiver dans le domaine théologique afin de fonder un Islam sur des bases solides, est considérée comme l'exploit le plus important qui a conduit à la consolidation de la croyance islamique chez les maghrébins, en les poussant à mieux l'apprécier à travers le progrès de la science. Parmi les conséquences de cette conquête, c'est la conversion des maghrébins en Islam en apprenant l'arabe. Cette campagne est considérée comme une conquête culturelle par excellence.

مقدمة:

إن انتشار الإسلام ببلاد الغرب الإسلامي والمجهودات التي بذلت إبان القرن الأول الهجري، وحتى نهايته من قبل القادة الفاتحين، الذين وضعوا الأسس الأولى للمجتمع الإسلامي الجديد بالقيروان، والتي تعد أول منارة للإسلام بأفريقية، وهي العاصمة الثقافية الإسلامية الأولى في المغرب كله، ولقد ترتب على هذا الانجاز أن أصبحت تضطلع بدور رئيسي في نشر الإسلام والعربية لا في المغرب وحده، بل وفي إفريقيا وفي الأندلس وفي صقلية. وإلى جانب الأثر الثقافي الذي تركته القيروان في شمال إفريقيا من خلال القادة الفاتحين الأوائل والأعمال الجليلة التي قدمها من صحبوا الحملة من الصحابة الكرام والتابعين الأجلاء، فإن أهم شيء أدى إلى ترسيخ عقيدة الإسلام في نفوس المغاربة ودفعها إلى التشبث به، وازدهار الحياة العلمية هو تلك البعثات العلمية التي وفدت على المغرب إما في شكل فردي أو في شكل رسمي، ويعتبر هذا الفتح فتحاً دينياً وثقافياً.



وأهم هذه البعثات الرسمية، بعثة عمر بن عبد العزيز المكونة من عشرة من التابعين، الذين أرسلهم وأمرهم أن يبذلوا جهدهم لتفقيه البربر في علوم الدين حتى يقوم إسلامهم على أساس متين؛ لأن عمر نظر إليها ولاحظ أن شيوع الإسلام بها لم يكن إلا سطحيا لا يقيها كيد الكائدين، ولا يحقق لها ما يشد أزر الدين، وكان من نتائج هذه البعثة أن انتقل البربر إلى الإسلام وتعلموا العربية لغة القرآن. وإذا سلمنا جدلا أن القادة الفاتحين كان عملهم فتحا سياسيا عسكريا، فإن هذه الحملة المسماة بالحملة العمرية كان فتحها دينيا ثقافيا بامتياز.

أولا: أوضاع المغرب قبيل الفتح دينيا

تكاد تجمع المصادر الأولى والمراجع المتأخرة التي أرخت لبلاد المغرب، أن الأوضاع العامة في هذه الرقعة الجغرافية لم تكن على ما يرام؛ إذ سادتها الفوضى السياسية والاجتماعية والدينية في ظل الحكم البيزنطي، الذي انتهى إلى حال من الاضطرابات السياسية والصراعات الداخلية بين سكان البلاد الأصليين، والسلطات الحاكمة، حيث بدأ العد التنازلي للوجود البيزنطي في شمال إفريقيا، وخاصة بعد استمرار الثورات، فقد ظل الحكام البطارقة يمارسون سياسة نهب البلاد، وفرض الضرائب، الأمر الذي أدى إلى انهيار البنية التحتية وتصعد جميع المرافق الإدارية والمدنية والعسكرية، إضافة إلى انتشار مظاهر الفساد في جهاز السلطة وصحبه انهيار في القيم الخلقية، ولم تكن الكنيسة ببعيدة عن هذا الواقع الذي استشرى في أجهزة الدولة، فقد أصيبت هي الأخرى بالفساد والمعاصي بين القساوسة¹. ويبدو أن المغرب بكامله لم يشهد استقرارا دينيا أو وحدة دينية عبر العصور وذلك بالنظر إلى التكوين الخاص من جهة التركيبة الاجتماعية والاستقرار الذي كان يعيشه عبر تاريخه، مما أدى إلى تعدد الديانات بين السكان الأصليين أو الوافدين سواء كانت وضعية أو سماوية. في الواقع لا يمكننا أن نؤرخ لهذه المرحلة للتطور الديني في المغرب القديم، ولكن التزامنا البحثي يفرض علينا التركيز على حال الديانة قبيل دخول الإسلام إلى شمال إفريقيا.

أما الديانة النصرانية فيبدو أن الكنيسة الإفريقية لم تكن خلال العصر البيزنطي على حال يبعث على الأمل في مستقبل المسيحية في البلاد، حيث كانت إدارتها مختلفة النظام؛ إذ تلاشى النظام الكنسي واقترب القساوسة - كما أشرنا - ذنوبا تدل على العصيان والتدهور الأخلاقي والفساد².

وعلى الرغم من المحاولات التي بذلتها الكنيسة في محاولة نشر الديانة بين القبائل المغربية، ورغم النتائج التي حققتها، إلا أن الخلافات المذهبية بين سكان البلاد والسلطات الحاكمة، تعدت إلى الخلافات السياسية بسبب الاضطهاد الديني، وكانت نتائجها خطيرة أصابت كيان الغزاة البيزنطيين في الصميم، الأمر الذي أفضى إلى الانقسام والفرقة والخروج عن مذهب الإمبراطور البيزنطي، وكان هذا الخصام المذهبي من الأسباب التي عجلت باضمحلال النفوذ البيزنطي وبداية نهايته في بلاد المغرب³.

ويمكن القول أن الديانة النصرانية في بلاد المغرب لم يقر لها قرار، ولم تحقق الأهداف الكنسية الرومانية التي سعت إلى تنصير الشمال الإفريقي برومته، وذلك راجع في اعتقادنا إلى الصراع المذهبي بين أبناء الديانة الواحدة، وثانيا إلى الإرهاب الديني الذي مورس على المغاربة بشكل عام، ومن ثم بقيت النصرانية محدودة الانتشار في حدود الامتداد والنفوذ السلطوي للقادة السياسيين والعسكريين، ورغم أن المؤرخين الأوروبيين حاولوا من خلال كتاباتهم التاريخية القديمة والحديثة التأكيد على أطروحة مفادها أن الديانة المسيحية انتشرت بشكل كبير في المغرب، معتمدين على دليل مفاده أن بلاد المغرب أنجبت مفكرا وفيلسوبا عظيما وهو القديس " أوغسطين " صاحب الاعترافات المشهورة، ومؤلف كتاب " مدينة الله " ⁴. وهذا من المبالغات التي دأب على ترويجها مؤرخو الدولة البيزنطية خاصة، ولكن الواقع التاريخي يفند هذه المقولات غير المؤسسية؛ إذ بدخول جيش الفتح إلى المغرب واستقرار المسلمين بها تلاشت الديانة المسيحية، ولم تصمد أمام الدين الجديد، رغم أن حقوقهم مكفولة في المنظومة التشريعية الإسلامية تحت مسمى " أهل الذمة "، بل إن بعضهم اندمج في الدين الجديد واعتنقه وحسن إسلامه والفئة الأخرى خرجت مهزومة ومطرودة.

وعليه يمكن القول أن الحضور النصراني في المغرب بقي محدودا جدا، وبقي الحاجز قويا بين المغاربة والبيزنطيين، كما أن التأثير ظل ضعيفا ونسييا⁵، وإلا كيف نفسر المقاومة المستمرة للمغاربة ضد الدخيل الأجنبي على مر العصور؟

وإلى جانب الديانة النصرانية، عرف المغرب وجود الديانة اليهودية التي دخلت في وقت مبكر مع الهجرات في العهود السابقة، سواء في العهد القرطاجي أو في العهد الروماني أو الوندالي أو البيزنطي، رغم ذلك فالموضوع تتجاذبه الآراء المختلفة والمتضاربة أحيانا؛ إذ لم تتفق المصادر على تحديد تاريخ يعتبر منطلقا لقدم اليهود إلى بلاد المغرب، ومما يزيد في التعقيد، الاختلاف في المناطق التي هاجرت منها الجماعات اليهودية، فأدى ذلك إلى القول بغموض أصل اليهود في الشمال الإفريقي⁶.

وخلاصة القول في ذلك أن اليهود في المغرب - خاصة في العهد البيزنطي وقبيل الفتح الإسلامي - كانوا موزعين في أهم الحواضر تقريبا؛ إذ من النادر أن نجد حاضرة تحتل موقعا هاما جغرافيا أو تجاريا أو سياسيا لا تتواجد فيها مجموعات يهودية⁷، ورغم الصراع الحاد الذي كان بينهم وبين المسيحيين عبر عدة عقود، إلا أنهم في العهد الإسلامي مارسوا حريتهم الدينية، ولم يعرفوا حرية المعتقد إلا في العهد الإسلامي، رغم ذلك فإن نشاطهم في بلاد المغرب كان ضعيفا إلى حد ما، بالرغم من اعتناق بعض القبائل للديانة اليهودية عن طريق الاحتكاك الاقتصادي التجاري والاستيطان المؤقت لبعض الجاليات هنا وهناك.

أما عن وجود أديان أخرى غير السماوية في المغرب، فتذهب بعض الدراسات الغربية منها على وجه الخصوص، وبعض المصادر العربية، إلى أن أغلب الشعب المغربي كان يدين بالوثنية، حيث يذكر صاحب كتاب "روض القرطاس" أن بعض أغلب قبائل فاس كان لهم بيت نار، كما يذكر البكري أن قبائل ودان كان لهم صنم من حجارة مبني على ربوة تسمى (كرزة)، يقربون له القرابين ويستشفون به من أدوائهم ويتبركون به في أموالهم⁸.

ومهما يكن من نقص في المادة الخبرية المتعلقة بديانة المغاربة قبيل الفتح، فإن مجموعة النصوص التي بين أيدينا تجعلنا نستنتج أن أغلب القبائل المغربية كانت إما وثنية أو لا

دينية، وربما الأمر الذي جعل المغاربة يقبلون على الدين الجديد هو ذلك الفراغ الروحي الذي كانوا يعيشونه، مما أوجد مناخا مناسباً وفرصة سانحة للتعلم بهذا الدين الجديد والبحث عن ملجأ حصين لهم.

في هذه الظروف العصيبة وغير المستقرة سياسياً واجتماعياً ودينياً، كان المغرب في حاجة إلى مخلص أو منقذ، كما أن الظروف كانت مناسبة للخلافة الإسلامية التفكير في فتح الجبهة الغربية، رغم شح المعلومات وقلة الأخبار عن جغرافية المكان وحال السكان وغير ذلك، إلا أن تصميم الخلفاء على استكمال الفتح الإسلامي ونشر رسالة الإسلام كانت أقوى من كل العوائق، ولذا فكر عمر بن الخطاب في فتح مصر تمهيداً لفتح المغرب.

ثانياً: دخول الإسلام: التحديات والانجازات:

كان التفكير في فتح بلاد المغرب بعد أن دخل المسلمون مصر أمراً فيه مغامرة غير محسوبة العواقب، وذلك لجهلهم بها وبسكانها وطبيعتها الجغرافية القاسية، وهذا ما نلمسه من النصوص التاريخية التي أرخت لعملية الفتح وتتبع مراحلها منذ أواخر عهد الخليفة الفاروق رضي الله عنه، إلى نهاية الفتح الحقيقي على يد موسى بن نصير.

لا نريد من هذا المبحث أن نفصل في سير أحداث الفتح، لأن هذا الأمر مرقون في كتب التاريخ بما فيه الكفاية وإنما سنركز على أمرين اثنين:

- تحديات الفتح . - إنجازات الفاتحين.

1- تحديات الفتح:

أجمع الكتاب والمؤرخون على أن فتح بلاد المغرب تطلب زمناً طويلاً ما يقرب من سبعين سنة، على خلاف الأمصار الأخرى المفتوحة التي لم يستغرق فتحها زمناً طويلاً، وهو ما يفرض علينا التساؤلات الآتية: هل كان هذا الأمر أمراً طبيعياً أم أن هناك عوامل أخرى موضوعية حالت دون انجاز المهمة في زمن قصير وبأقل الخسائر البشرية والمادية؟



تجيبنا عن هذه التساؤلات مصادر الفتح، على أساس أن المغرب يختلف إلى حد كبير عن فتح المشرق، وذلك لتلك الخصوصية التي انطلقت على هذه الرقعة الجغرافية البعيدة عن مركز الخلافة، ولفهم ذلك يجب علينا أخذ كل العوامل بعين الاعتبار مجملتها؛ لأن حوصلتها كانت طول استغرق فتح بلاد المغرب قياساً على غيرها من البلدان، اعتباراً من النواحي الجغرافية والبشرية بما في ذلك التشكيلة الاجتماعية والناحية اللغوية للبربر، ثم من ناحية القوى التي كانت متواجدة على الساحة المغربية، ثم من ناحية الإسلام بين النظرية والتطبيق ببلاد المغرب.

فخلاصة ما تدل عليه المصادر والمراجع أن بلاد المغرب تتميز بمساحة شاسعة جداً، وسواحل ممتدة امتداداً كبيراً، وتضاريسها متنوعة ومناخات مختلفة وبها صحراء شاسعة، قليلة السكان ناذرة المياه وإن وجدت فهي صالحة في أغلب نواحيها، وهي شبيهة بالربع الخالي بشبه الجزيرة العربية، وهو ما صعب من مهمة الجيش الفاتح في تنقلاته واستقراره، أو الوصول إلى بعض الأماكن الوعرة والتي لم يعتادوها في بلدانهم أو ألفوها في ترحالهم.

أما عن سكان هذه البلاد من البربر فأحسن وصف لهم قول موسى بن نصير فيهم حين سأل الخليفة سليمان بن عبد الملك: "هم يا أمير المؤمنين أشبه العجم بالعرب لقاء ونجدة، وصبرا وفروسية، غير أنهم أغدر الناس"⁹، وهذا القول لموسى بن نصير قد يلخص كل ما يخص البربر اجتماعياً وسياسياً.

إذن فمجريات الحرب كانت تدور بين شعبين يتشابهان في كثير من الخصائص من حيث الصلابة والشدة والقسوة. أما القوات البيزنطية، فإنها كانت دائماً توظف البربر لصالحتها، ولم تواجه المسلمين إلا مواقع معدودة اضطراراً، ويجنحون لمصالحة المسلمين إن وجدوا لذلك سبيلاً، كما حدث مع القائد عبد الله بن سعد بن أبي السرح، حين صالح البيزنطيين على جزية يدفعونها، كما تجنبوا قتال عقبة بن نافع وهم راجعون من المغرب الأقصى، بل اكتفوا بمقاومته والزج به إلى الموقع المرتقب بعدما حرضوا كسيلة وقومه عليه، كذلك فقد لجأوا إلى الصلح حين حاصر أبو

المهاجر دينار عاصمتهم قرطاجنة، واستولى على جزيرة شريك بالقرب منها على مبلغ من المال وشروط اشتراطها عليهم.

وهكذا يتضح لنا أن المصارعة الحقيقية في خلفياتها التاريخية وأبعادها الاستراتيجية ظلت بين البيزنطيين وجيش الفتح الإسلامي ببلاد المغرب، فالبيزنطيون لتعويض ما فقدوه ببلاد المشرق، والجيش الإسلامي للوصول إلى هدفه وهو فتح البلاد، وأقوى دليل على ذلك أنه ما إن استكمل المسلمون فتح بلاد المغرب سوى بانتهاز الهيمنة البيزنطية على البربر على عهد حسان بن النعمان، فلم يستغرق الصراع مع الكاهنة أكثر من خمس سنين.

أما الجانب الروحي في فتح بلاد المغرب، أو ناحية الإسلام بين النظرية والتطبيق في عملية الفتح، وهنا بعيدا عن الحالات المبالغ فيها التي أحاطها العرب المسلمون بقيادة الفتح وإنجازاتهم مما أبعدهم عن مناقشة هذه القضية مناقشة واقعية ومنطقية.

ومنها تفسير ابن خلدون لطول الفتح الإسلامي بالبلاد إلى " غدر أهل المغرب"¹⁰ أو إلى " سرعة ردّهم كما قيل"، لكن بماذا يفسر دخول البربر في النهاية الإسلام واعتناقهم له، بل والدفاع عنه ونشره في الأندلس وفي إفريقيا، وهو ما يضع مقولة ابن خلدون محل تفكير وتساءل؟ ثم لماذا كان البربر يرتدون بعد إسلامهم؟ ومن هنا يتبين لنا أن العيب فيمن جاؤوا ليوصلوا الإسلام إلى بلاد المغرب وليس في أهل البلاد، فقد انشغلوا بالعمليات العسكرية وجمع الغنائم أكثر من نشر الدعوة وتعليم الناس مبادئ الناس وأحكام العقيدة، وإن كانت بعض الجهود المبذولة، إلا أنها كانت لا ترقى إلى المستوى المطلوب وإلى تطلعات أهل البلاد الذين يجهلون هذا الدين ولغته، وهو أمر صعب من عملية التواصل بين القادة وأهل القبائل.

وفي الأخير يمكن القول أن قادة الفتح الإسلامي أحسنوا إلى حد كبير استعمال الاستراتيجيات العسكرية، وأسأوا تقدير رد فعل البيزنطيين وقوة البربر على الرغم من عدم وجود سلطة مركزية توحدهم، وأسأوا التعامل مع البربر وبالتالي قصرُوا حتى في أمر الدعوة الإسلامية، ثم إن هؤلاء القادة بشر وليسوا ملائكة.

2- إنجازات الفاتحين:

رغم التحديات والعقبات التي واجهت الفاتحين إلى أنهم واجهوها بكل حزم وعزم. بل إن المتصفح لسير الأحداث ومجريات الفتح يرى إصرار الخلافة المركزية وقادة الفتح على استكمال المشروع مهما جد من أمر¹¹، وهو ما نستشفه من النصوص التاريخية والرسائل المتبادلة بين الخلفاء والولاة والقادة، أو من إرسال الجيوش وتجهيزها¹².

وأبرز شيء في عملية الفتح ومنذ البداية، أن الفكرة الأساسية التي سبغت المسلمين في هذا الموضوع موضوع الفتح، هي نشر رسالة الإسلام وتبليغ دين الله إلى الناس على أنه نعمة من نعم الله على البشرية. ولا مجال لبعض المزايدات التي حاولت تصوير الفاتحين على أساس أنهم غزاة وأنهم أذاقوا البربر الويلات... إلى غير ذلك من المهرطقات العارية عن الدليل التاريخي الصحيح، بل هي آراء المدرسة الغربية المادية على وجه التحديد، ولذلك فقد حقق المسلمون إنجازات عظيمة في الواقع، وأضافوا إلى الدولة الإسلامية أرضاً جديدة ومسلمين جدد أسلموا وحسن إسلامهم، وكانوا قوة إضافية للمسلمين بحيث ساهموا في فتح أقاليم أخرى ومنها الأندلس.

ومنها: أنه نتج عن انتقال البربر إلى الإسلام انتشار اللغة العربية - لغة القرآن - في بلاد المغرب، ويعني هذا الأمر أن الفتح كان فتحاً ثقافياً بامتياز.

ومنها: أن سياسة الدولة الإسلامية في البلاد المفتوحة كانت عظيمة الأثر في تلك البلاد؛ إذ حطمت الحواجز المصطنعة التي كان قد فرضها البيزنطيون من قبل في بلاد المغرب بين سكان البلاد في المناطق الساحلية والداخلية.

وأهم إنجاز في هذا هو انتشار الإسلام في البلاد بأسره مما انتشر في غيرها من البلدان، والدليل على هذا نجاح المد الإسلامي ورسوخه، بحيث صار المغاربة كلهم مسلمون واندمجوا في الحياة الإسلامية، كما اكتسبت ثقافتهم الصبغة العربية الإسلامية الواضحة، وامتزجت ثقافة الأمازيغ مع ثقافة العرب مشكلة نواة الثقافة المغربية الإسلامية¹³.

ومنها: تأسيس مراكز علمية وعسكرية لاستكمال الفتح السياسي والثقافي ومنها القيروان العاصمة العلمية والإدارية والعسكرية للمغرب، التي أضاءت على شمال إفريقيا والأندلس بنور الإسلام وحضارته، وأدت أدوارا كبيرة في تثبيت قدم الإسلام والعربية.

ومنها: الإقبال الكبير للبربر على الإسلام واعتناقه؛ لأنهم أحسوا وتمتعوا بحقوق المساواة مع الفاتحين فضلا عن مكاسب معنوية ومادية، كما أن التحول للإسلام قد تم ببسر وسهولة ومرونة تدعوا للانبهار والدهش، بعد أن رأى أهله نماذج إسلامية وضاءة في أشخاص مثل عقبة وصحبه¹⁴.

ومنها: أن المسلمين الفاتحين بأخلاقهم استطاعوا أن يوطدوا صلات الأخوة والتعاون بين العرب والبربر محققين بذلك تلاحما تاريخيا لا نظير له.

ومنها أيضا: أن الفاتحين استطاعوا توحيد القبائل المغربية وإضعاف النعرات القبلية بنشرهم لقيم التسامح الإسلامي، وما يقتضيه القانون الإسلامي من نبذ العصبية والقبلية إلى حد كبير.

ومهما يكن فإن ما أنجزه المسلمون ببلاد المغرب من نشر الإسلام والتمكين له، ونشر اللغة العربية، والتأسيس لحضارة مغربية بمكوناتها الثقافية يعد أعظم إنجاز وأكبر عمل دون منازع.

ثالثا: البعثات العلمية إلى المغرب

بعد أن استكمل الفاتحون فتح المغرب عسكريا، وبعد أن دانت لهم البلاد والعباد، رغم ذلك فإن المغاربة لم يفهموا بعد حقائق الإسلام وشرائعه ولم يتعمقوا في أحكامه بالشكل الكافي، لذا فإن جميع الحملات كانت تركز على الفتح العسكري، إلا ما كان من بعض المجهودات التي قام بها الفاتحون ومن صحب الجيش الفاتح من بعض الصحابة والتابعين والقراء، إلا أنها لم ترقى إلى المستوى المطلوب، ولم تحقق رغبات المغاربة، وحتى نهاية القرن الأول الهجري لا يزال الإسلام سطحيا في قلوبهم، فرغم جهود الولاة لنشر الإسلام والتمكين لسلطة الدولة الإسلامية فإن الخلفاء أيضا لم يتخلفوا عن دعم الولاة والاهتمام بالبلاد المغربية. وأشهر هؤلاء الخلفاء عمر بن

عبد العزيز (99-100هـ)، الذي كان يريد أن يعم نور الإسلام جنبات الكون، وأن تعمّر به قلوب الناس وتضاء بصائرهم بهداه.

بعثة عمر بن عبد العزيز:

عرفت في التاريخ المغربي بالبعثة العمرية، وتأتي في سياق السياسة الرشيدة التي اتبعها عمر بن عبد العزيز إبان خلافته، واهتمامه بشؤون الرعية¹⁵، وخاصة المسلمون الجدد، وتبدأ قصة البعثة بتعيين واختيار إسماعيل ابن عبيد الله ابن أبي المهاجر دينار بلاد المغرب سنة 100هـ ليدعوا من تبقي من البربر إلى دين الله¹⁶، فلم يكن إسماعيل واليا فحسب بل كان داعية إلى الإسلام، وبعد هذا التعيين المبارك أتبعه بإرسال عشرة من علماء أو تسع من التابعين، أهل علم وفضل.

وتذكر المصادر المغربية على وجه الخصوص أن هذه البعثة وعلى رأسها الوالي الجديد الذي كان خير أمير وخير وال كان حريصا على دعاء البربر إلى الإسلام¹⁷، وكان هؤلاء العلماء التابعون من خيرة الفقهاء والمحدثين، حيث انتشروا بين البربر حاملين معهم مشروع أمة وخطّة واضحة قائمة على تعليم الناس أصول دينهم، وتبصيرهم بقواعده وأحكامه. أقام كثير منهم في مدينة القيروان وغيرها من المدن المغربية.

لم يكن الأمر هينا أو سهلا، بل كان فيه من الصعوبات والعقبات ما يشبّط العزائم ويضعف النفوس ويقتل الهمم، لكن تصميم هؤلاء وبعد نظرهم وخطتهم تجاوزت كل شيء، وبدأ الفتح الثقافي ينمو ويتسع وفق رؤية إستراتيجية مبنية على فقه رباني يأخذ في الحسبان واقع الناس ومستوى وعيهم، ويمكن تلخيص هذه الخطّة فيما يلي:

تأسيس الكتاتيب:

كان أول عمل قام به هؤلاء الثلة من العلماء، أن أختط كل واحد منهم كتابا لتعليم صغار الطلبة مبادئ اللغة العربية وتحفيظ القرآن الكريم، وهذه المرحلة تسمى بالمرحلة الإعدادية، وفيها يتم تلقين الطلبة المبتدئين قواعد اللغة العربية وشيء من الحديث النبوي، استعدادا للمرحلة المقبلة، ونعتقد أن هذا العمل مبني على رؤية

علمية موضوعية وبيداغوجية، تتناسب مع مجتمع غريب عن لغة هذا الدين الجديد وغريب عنه هذا القرآن وهذه السنة النبوية، فالتركيز على إعداد جيل جديد لا يعرف إلا العربية والقرآن الكريم والسنة كفيل بتكوين الطبقة الأولى التي ستحمل المشعل وتواصل المسيرة في نشر الإسلام بين القبائل وفي القرى والمدن، وهذا الذي حدث فعلا؛ إذ أن الدفعة التي تخرجت هي التي حملت لواء نشر الإسلام والعربية في الربوع المغربية، كأبي كريب المعافري، وعبد الله بن عبد الحكم البلوي، وأبي خالد عبد الرحمان بن زياد بن أنعم المعافري، وأبي محمد بن عمران التجيبي، وعبد الله بن فروخ (ت 175هـ) وعلى بن زياد التونسي (ت 183هـ) والبهلول بن راشد (ت 183هـ)¹⁸ وشقران بن علي القيرواني (ت: 186هـ) وعبد الله بن عمر بن غانم الرعيني (ت 190هـ) وصقلاب بن زياد الهمداني (ت 193هـ) وعنبسة بن خارجة أبو خارجة الغافقي (124 - 210) وأسد بن الفرات (ت 213هـ)¹⁹

تأسيس المساجد:

لقد كانت خطة العمل تقضي بتأسيس مسجد بجوار كل كتاب، ولكل فرد من هذه البعثة، فمعظم هؤلاء التابعون كانوا يقيمون في القيروان، وكذلك كثر بناء المساجد التي كانوا يعلمون الناس فيها قواعد الإسلام وعلومه، ولا ننسى أيضا أن اللغة العربية كان لها الحظ الأوفر في المسألة التعليمية لأنها وسيلة فهم الإسلام وشرائعه، ويعتبر المسجد بمثابة مدرسة تعليم عال، كانت تقام فيه الدروس العلمية والشروح ومدارس القرآن الكريم بتفسيره وتجويده، وكانت طريقة التحلق السمة البارزة في العملية التعليمية، حيث كان البربر يقدون على هذه المساجد فيستمعون إلى الدروس والمواظ التي كانت تلقى. ويبدو أن أهل إفريقية قبلوا على الإسلام وتعلمه بنفوس راضية ومطمئنة لما وجدوا فيه من سماحة ومساواة وعدالة بل وإنسانية، وتركوا ما يخالف عقيدة الإسلام²⁰.

إن حرص هؤلاء العلماء كان من منطلق إيماني خالص، وعن قناعة راسخة نابعة من مبدأ شرعي ومسؤولية عظيمة تقضي بوجوب تبصير الناس وتعليمهم أمر دينهم، فكان المسجد هو المنارة الأولى التي أشع منها نور الإسلام، وأعظم مسجد

أدى هذا الدور بامتياز مسجد عقبة بالقيروان، ومنه إلى باقي المساجد بالمغرب والأندلس. لقد كان هذا المسجد مسجد عبادة وتعليم عال في اللغة وعلوم الفقه والحديث وغيرها من العلوم الشرعية والأدبية، بل بفضل هذا المسجد صار البربر ملتزمون بأداء فروض الدين،²¹ كما أن هذا المسجد الجامع يعتبر الشرارة الأولى لحركة التعريب، ولا شك أن التطور الهام الذي سجل أنداك في المجال اللغوي قد أدى إلى صوغ لغة كفيلة بالتعبير عن كل المفاهيم والمصطلحات العلمية، وتقبل الدخيل من المفردات عند الاقتضاء.²² ، كما كان مسجد الرباطي الذي بناه أبو عبد الرحمان الحبلي يقوم بأدوار علمية هامة ، وكذلك اشتهر جامع الزيتونة الذي بناه إسماعيل بن عبيد الله الذي المشتهر بلقب " تاجر الله ".²³

ويمكن القول أن الحركة العلمية في القيروان قد نشطت نشاطا ملحوظا، وأن المشهد الثقافي تحرك بوثيرة غير مسبوقة، فكثرت المساجد والكتاتيب، وزاد إقبال المغاربة على إرسال أولادهم للتعلم ثقافة الدين الجديد، وبدأت ثمار هذه البعثة تؤتي أكلها، وبدأ المجتمع المغربي يتفاعل بشكل مستمر مع الثقافة الوافدة، ولا شك أن ذلك يعود إلى ذلك الدور الهام الذي لعبه هؤلاء التابعون الذين أسسوا لقاعدة انطلاق ثقافي جديد، كانت نتائجه باهر ومصيرية على الوحدة الدينية المغربية، وهؤلاء العلماء هم الذين فيما بعد خرجوا من الطلبة النجباء طبقة من العلماء أسسوا للوحدة المذهبية المغربية في إطار المذهب المالكي السني، ووضعوا اللبنة الأولى للهوية المغربية بمكوناتها اللغوية والدينية وإرثها التاريخي.

رابعا: التعريف بهذه البعثة (أسماءهم):

كان من لوازم البحث ونحن نتكلم على هذه البعثة العلمية المباركة أن نذكر للقارئ والمستمع أسماء أفراد هذه البعثة كما أوردها المؤرخون. فالبعثة التي أرسلها عمر بن عبد العزيز مكونة من عشرة من العلماء التابعين، يرأسها التابعي الجليل عبد الله بن يزيد المعافري الحبلي (ت100). وأول أفراد هذه البعثة سعيد بن مسعود التجيبي، وقيل إن اسمه سعد، ويكنى بأبي مسعود، كان رجلا فاضلا مشهورا بالدين والفضل، قليل الهيبة للملوك في حق

يقوله، لا تأخذه في الله لومة لائم، وكان من العلماء الذين وقف في وجه الخوارج بالمغرب، له ترجمة حافلة في كتب التراجم والسير.²⁴

ومنهم أيضا أبو سعيد جعثل بن عاهان أو هامان ابن عمير الرعيني(ت 115)، كان فقيها صالحا ولاء هشام بن عبد الملك قضاء جند إفريقية، وهو أحد القراء التابعين.²⁵

أما إسماعيل بن عبيد الأنصاري أبي المهاجر المخزومي (ت 132)، فقد كان فقيها صالحا، فاضلا زاهدا، تقلد منصب القضاء في إفريقية، أسلم على يديه كثير من عامة البربر، تشهد به سيرته أنه سار في الناس بالحق والعدل، وعلمهم السنن، أثنى عليه خلق كثير من أهل السير والتراجم،²⁶

ومنهم أبو الجهم عبد الرحمان بن رافع التنوخي(ت 113)، كان من أول قضاة القيروان، يعد من فضلاء العلماء ولاء موسى بن نصير سنة 80هـ، ومنهم موهب بن حي المعافري، كان من أهل الفضل سكن القيروان وبث فيها علما غزيرا، كانت وفاته بها رحمه الله.²⁷

ومنهم حبان بن أبي جبلة القرشي، كان من أهل العلم والدين، سكن القيروان وانتفع أهلها بعلمه(ت 125)، حيث كان من أبرز أفراد البعثة، وقد أدى دورا مهما في نشر الإسلام والدراسات الإسلامية في إفريقية.²⁸

ومنهم أبو ثمامة بكر بن سودة الجذامي، كان رجلا فاضلا جليلا، وفقها مفتيا، سكن القيروان(ت 128)،²⁹

ومن هؤلاء العشرة أبو عبد الحميد إسماعيل بن عبيد الله بن أبي المهاجر المخزومي، كان من أهل الدين والزهد، سكن القيروان وسار في المسلمين بكتاب الله وسنة رسوله، وفقههم في السنة، أسلم على يديه خلق كثير من البربر، وقد وصف بأنه كان خير وال وخير أمير، وكان حريصا على نشر الإسلام والتمكين له، ودعاء البربر إليه (ت 122)، وكان في سياسته وعدله صورة خليفته عمر بن عبد العزيز.³⁰

وأخيرا العالم الجليل طلق بن جابان أو جعبان الفارسي، قيل إنه من التابعين، وهو من أهل مصر، سكن القيروان ومات بها.³¹

فهذه الكوكبة من العلماء الأفاضل، هي التي وضعت الأسس التي بنيت عليها الحركة الثقافية في المغرب من خلال الدور الهام الذي أدّوه، والمجهودات الجبارة التي بذلوها في سبيل نشر الإسلام والتمكين لدين الله، ونشر اللغة العربية في البلاد المغربية، لتسهيل عملية الاتصال بين الفاتحين والقادة وبين السكان، وهو ما تم فعلا.

خامسا: أثر هذه البعثة في نشر الإسلام وتوحيد المغاربة ثقافيا

لا يمكن أن نؤرخ للمسألة الثقافية في المغرب الإسلامي وجذورها التاريخية، بل ومراحلها عبر العصور، إلا من خلال ما أحدثته البعثة العمرية من هزة نفسية وثورة ثقافية منذ بداية القرن الثاني الهجري، فلقد كان لهذه البعثة دورا مفصليا وأثرا تاريخيا، من خلال نشاط غير طبيعي، والذي تميز بديناميكية غير مسبوقة؛ لأن سير الخطة كانت تقضي بنشر الإسلام واللغة العربية في آن واحد وهو ما سهل من مهمتهم ورسالتهم.

فمن الآثار التي تركها هؤلاء:

- أنهم حفظوا كتاب الله لأهل البربر، ونشروا السنة، كما فصلوا لهم أحكام الشريعة وبنوا العقيدة الصحيحة التي ينبغي أن يدين بها الفرد المسلم.
- أنهم وضعوا الأسس التي بنيت عليها هوية المغاربة من خلال ربطهم بالإسلام كدين، والحفاظ على ثقافتهم الأمازيغية التي لا تتنافى مع الإسلام.
- أنهم وضعوا الأسس الأولى للحركة العلمية التي بنيت عليها الحياة الثقافية في البلاد، والتي انطلقت وعمت كل الربوع وامتدت إلى الأندلس وإفريقيا.
- أنهم علموا المغاربة الإسلام كما انزل بعيدا عن الفرق الكلامية والمذاهب العقدية المنحرفة، وحتى التيارات السياسية الحزبية التي ظهرت في المشرق من خلال ترسيخ العقيدة الإسلامية الصافية المستنبطة من الكتاب والسنة.
- قاموا بنشر اللغة العربية وبنوا قواعدها وعلموها للصغار والكبار، فكانت هذه العملية قاعدة التعريب التي نشرها فيما بعد المغاربة أنفسهم في القبائل والقرى.
- ومن ذلك أن الخمرة كانت منتشرة كأنها حلال عند أهل إفريقيا، فعرفوا الناس بحرماتها ومنافاتها لأحكام الإسلام وتعاليمه.

- أنهم سنوا في المغرب سنة حميدة، تمثلت في بناء الكتاتيب والمساجد، فصار تقليدا راسخا فيما بعد عند المغاربة.
- ومن آثارهم أنهم رسخوا في المغرب مبدأ احترام وطاعة ولاية الأمور، وفق الضوابط الشرعية، والقواعد المرعية حتى تستقيم الأمور ويسود الأمان.
- من آثارهم: التلاميذ والطلبة الذين تخرجوا على أيديهم، وهم يعدون بالمئات، وهي الطبقة الأولى التي حملت المشعل وقادت مسيرة نشر الدعوة الإسلامية في البلاد المغربية وتأسيس المساجد والمدارس.
- ومن ذلك أنهم أشاعوا الرشد وحرصوا على الأمن والتآخي بين المسلمين، كما أقاموا أحكام الشريعة، وبينوا الحلال والحرام .
- ومن آثارهم: أنهم أسسوا للدراسات الشرعية واللغوية في المغرب، وصارت القيروان منارة علمية ومركز إشعاع ثقافي وحضاري كبير.
- ومنها: أنهم وحدوا المغاربة ثقافيا بحيث صارت الهوية المغربية متجانسة ومنسجمة، يجمعهم دين واحد ومصير واحد.
- ومن آثارهم: أن هؤلاء العلماء ساروا على سياسة واضحة، بحيث وطدوا صلات الأخوة والتعاون بين العرب والبربر، فصار البربر يعتزون بدينهم ولغتهم العربية، لأنها لغة القرآن ولغة الحضارة.
- ومن ذلك: أنهم سعوا إلى تطهير المعتقدات وإزالة ما علق بها من أدران الدعوة الخارجية، ومن أمثلة ذلك: رسالة رواها المالكي في " رياض النفوس " لثلاثة من هؤلاء العلماء كتبوها ليقننوا بها المسلمون ويعتقدوا ما فيها³²، لما ثار جماعة من الخوارج على عهد حنظلة بن صفوان الكلبي، وخيف على المسلمين من شر دعوتهم.³³
- وأكبر أثر تركته هذه البعثة، بل خلاصتها انه بفضل الله ثم بفضل هذه البعثة أسلم من بقي من البربر، وانسدل ستار افريقية التائهة الضائعة، وانبجج عليها صبح جديد به تتميز الحق من الباطل.

ومعنى ذلك أن الفتح بمعناه الديني إنما تم على يد إسماعيل بن أبي المهاجر، ومن خلاله البعثة العمرية التي تركت عددا ضخما من الفقهاء وأهل الحديث، ثم إنه بفضل هؤلاء العلماء الأخيار الذين كانوا متمسكين بالسنة كان تلاميذهم من بعدهم حافظين لها نابذين كل ما عداها ثم تدعمت فيهم هذه النزعة بأخذهم عن الإمام مالك³⁴.

خاتمة:

يمكن القول أن بلاد المغرب الإسلامي خلال مراحل الفتح وسير أحداثه، قد شهدت أعمال فردية جلية عملت على نشر الإسلام وهداية الناس بجانب الفتح العسكري، إلا أن الفتح الحقيقي والكامل إنما تم على يد هذه البعثة الرسمية المسماة بالبعثة العمرية من خلال تأسيس المساجد والكتاتيب في كافة أنحاء المغرب، حيث علموا المغاربة القرآن الكريم والسنة النبوية واللغة العربية وعلومها، حيث نجحت هذه القافلة الدعوية في مهامها الجهادية أيما نجاح، إذ استطاعت في مدة وجيزة أن تبلغ دعوة الإسلام إلى كافة أبناء تلك الأصقاع التي شملت بلاد المغرب، وامتدت عبر البحر إلى الأندلس، وجنوب فرنسا، وصار بداية القرن الثاني الهجري الجديد فاتح عهد جديد، ولم ينتصف هذا القرن حيث أصبحت المغرب والقيروان على وجه التحديد عاصمة العلم والعلماء بل أول حاضرة علمية ومركز إشعاع ثقافي بالمغرب الإسلامي.

الهوامش

¹ منشورات اتحاد المؤرخين العرب، بلاد المغرب وعلاقتها بالشرق في أواخر القرن التاسع الهجري، دار عين للدراسات: القاهرة، 1997، ص. 19، 20.

² حسين مؤنس، فتح العرب للمغرب، مكتبة الثقافة الدينية، دت، ص 31.

³ منشورات اتحاد المؤرخين، مرجع سابق، ص. 20.

- ⁴ مسمودي نصر الدين، "بلاد المغرب قبيل الفتح" (الملتقى الدولي عقبة بن نافع الفهري)، ط1، دار الهدى، عين املييلة، الجزائر، 1431هـ 2010 ص.372.
- ⁵ لقبال موسى "البتر والبرانس والمظهر الاجتماعي لسكان بلاد المغرب قبل الإسلام" مجلة الأصالة، العدد 24، السنة الرابعة، ربيع الأول والثاني، مارس أبريل، 1975، ص.160.
- ⁶ مسعود كواتي، اليهود في المغرب الإسلامي من الفتح إلى سقوط دولة الموحدين، ط2، دار هومة، الجزائر، 2009، ص.15.
- ⁷ نفسه، ص.234.
- ⁸ منشورات إتحاد المؤرخين، ص.20.
- ⁹ الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج4، ط2، مؤسسة الرسالة، 1422هـ، ص.500.
- ¹⁰ ينظر: ابن خلدون، عبد الرحمان، المقدمة، دار الجيل، بيروت. دت. 0
- ¹¹ ابن عبد الحكم، فتوح مصر وأخبارها، ط1، تحرير: حماد الله ولد السالم، دار الكتب العلمية: بيروت، 1014، ص.1888.
- ¹² ابن عذاري المراكشي، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، ط1، ج1، تح: س. كولان، ليفي بروفنسال، دار الكتب العلمية: بيروت، 2009، ص.8، 9-
- ¹³ صابر محمد ذياب، "انتشار الإسلام وحركة الاندماج ببلاد المغرب في عصر الولاة"، مجلة البحث العلمي والتراث الإسلامي، العدد6، 1403/ 1404هـ، السعودية، ص-ص.290، 295.
- ¹⁴ المرجع نفسه، ص.301.
- ¹⁵ ابن الجوزي، سيرة ومناقب عمر ابن عبد العزيز الخليفة الزاهد، ط1، دار ومكتبة الهلال، بيروت، 1405هـ 1985م، 107-121.
- ¹⁶ التهامي إبراهيم، جهود علماء المغرب في الدفاع عن عقيدة أهل السنة والجماعة، ط1، مؤسسة - الرسالة، لبنان: بيروت، 2005 ص 32.
- ¹⁷ ابن عذاري، مصدر سابق، ص.48.
- ¹⁸ القاضي عياض، ترتيب المدارك، ح3، ط، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المملكة المغربية، 1403هـ، 1983م، ص-ص.65-110.

- ¹⁹ الرقيق القيرواني، تاريخ إفريقيا والمغرب، ط1، تح: محمد عزب، دار الفرجاني، 1414هـ 1994م. ص. 247. والمالكي، رياض النفوس، ط2 (1ج، تح: بشير البكوش، دار الغرب: بيروت، 1994م، ص. 254.
- ²⁰ حسين مؤنس، مرجع سابق، ص. 296.
- ²¹ الفرد بل، الفرق الإسلامية في الشمال الإفريقي، ط3، دار الغرب الإسلامي: بيروت، 1987. ص. 94.
- ²² محمد مرغيت، "محاضرات في مقياس الحياة الثقافية بالمغرب الإسلامي السنة الرابعة" تاريخ، 2009/2008.
- ²³ الرقيق القيرواني، مصدر سابق، ص. 24.
- ²⁴ المالكي، مصدر سابق، ص. 102.
- ²⁵ نفسه، ص. 114.
- ²⁶ نفسه، ص. 115، 116.
- ²⁷ المالكي، مصدر سابق، ص. 110، 111، وكذلك: الدباغ، مصدر سابق، ص. 213.
- ²⁸ يوسف بن أحمد حوالة، الحياة العلمية في إفريقيا، ط1، ج1، جامعة أم القرى، 1419هـ، ص. 105.
- ²⁹ الدباغ، مصدر سابق، ص. 211.
- ³⁰ المالكي، مصدر سابق، ص. 115، 116.
- ³¹ نفسه، ص. 117.
- ³² أنظر نص الرسالة عند المالكي، مصدر سابق، ج1، ص. 103.
- ³³ المجدوب عبد العزيز، الصراع المذهبي في إفريقيا حتى قيام الدولة الزيرية، ط2، تونس: الدار التونسية، 1986م، ص. 23.
- ³⁴ نفسه، ص. 24.